جزائري في إسرائيل

مديرة الدار : هاجر علاء "Jo"

01066392197

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية ، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية ، أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادةالواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

اسم الكتاب : جزائري في إسرائيل

تأليف : نورة طاع الله

الطبعة : الأولى

سنة الإصدار : ٢٠٢٥

تصميم الغلاف / هاجر علاء

تنسيق : أسماء أيمن الحديدي

تصحيح وتدقيق لغوي : أريج حسين

رقم الإيداع : 2025-58891

الترقيم الدولي 977-978-94-6221-0

إهداء خاص جدًا جدًا:

إلى من تخلى عنه الجميع، أقول له نحن معك بالأمس واليوم وغدًا..

معك بالمشاعر والأحاسيس بالعقل والقلب والنفيس.

معك، فأنت منا ونحن معك واقفون مساندون، وقد عجزنا عن ما عجزنا عليه، إلا أننا على نفس الرأي والموقف والإحساس والاستعداد ثابتون.

إليك كتبت وأرسلت رسالتي، فالقوي قوي وإن قيدوه من كل الجوانب والاتجاهات، والشجاع شجاع وإن أرهبوه ووضعوه وسط ألف خطر. هو شجاع، والصامد صامد وإن سلبوا منه كل شيء وأعز ما يملك فهو الصامد على الدوام، والمجاهد مجاهد وإن قطعوا له الرجل والرأس والذراع، مجاهد صامد قوي شجاع.

إليك أنت أيها الفلسطيني رمز التضحية والكفاح.

فلسطيني فلسطيني، وإن أخذوا الأرض، فلسطيني الهوية، فلسطيني بأرض فلسطين.

الولادة الأولى: ولادة الخروج إلى العالم الغريب والحياة العجيبة.. الولادة الأولى صراخ تواجد وحيد منفصل عن الرحم فيه تفتح العين عيناها، فترى الذي لا تفهمه والغريب عنها، والذي لا تعرفه، فتضحك لهذا ولذاك، وتتبع الذي على اليمين وتنتقل إلى اليسار. تتبع الخطوات التي من حولها لا لشيء، فقط تلاحظ ما الموجود. ما الذي يحدث هنا بالقرب وهي لا تميزه. هناك سر لا يفك عقده وطلاسمه ولا حباله لا الرضيع ولا أي عضو فيه يتحرك حديثًا، فهو يطلب من الجميع الالتفات حوله. يحب اجتماع الجميع، ولا يدري أن الأغلبية في عداوة وفي صراع، ويمسكون بحبل النزاع دون نية الترك والتخلي في القريب العاجل. الحبل الذي لا يود الانقطاع ولا أن يصبح هشًا رقيقًا فينقطع لوحده دون جلب قوي ولا حتى ضعيف خفيف بقوة الرضيع. لا تتوقف أمي عن إخباري أنني الطفل الذي أول شيء ابتسم للحياة عند

القدوم والرحيل من بطنها. تفاءلت بي أمي، أنا فرحتها الوحيدة التي لا تغيب ولا تنتهي. في ضواحي باريس المكتظة منها والواسعة ولدت في تلك الليلة الباردة لذا أنا عاشق للشتاء وللمطر، وأنسى نفسي عند حلول الثلج. لا أتذكر شيئًا عن مجيئي للحياة، لهذه الحياة الصعبة، سوى أمي. حكايات قبل النوم هي عني، عني أنا فقط، فأحببت نفسي لكل جميل ورائع تحكيه الغالية عني. كل التفاصيل الصغيرة الدقيقة، التفاصيل التي لا ينتبه إليها الكثير، أمي دونتها بالكتابة والصور، خطوة خطوة ولحظة لحظة بلا نسيان. باريس جميلة، باريس العشق، بها الأكل اللذيذ والرحلات الممتعة. عشت بها السنوات الأولى التي أتذكر منها القليل وأمي الكثير والكثير. أصدقائي، جيراننا العرب، لم أرغب في الرحيل، لم أتصور أن يومًا سنرحل تاركين باريس الجمال. بكيت وحزنت، فإنني أحب مدرستي وجيراننا والأصدقاء. الرحيل عن باريس صعب، لكن في المقابل لوطني أشتاق. وطني الذي لم أره حتى الآن، كثيرًا أشتهي التجول في شوارعه والتسكع في طرقاته الهادئة المنيرة

المشرقة كنور الاستقلال الذي لم نره حتى الساعة. على العدو المحتل أحقد وبكثرة. متشوق، متحمس، إنه الوطن الغالي كما يقول عنه أبي، والوطن الأم والحضن البيت الكبير كما تقول عنه أمي، وطني القلب كما أقول عنه أنا. حزين أنا على الرحيل، فرح أنا وسعيد فالوطن ينتظرني وأنا أنتظر لحظة التجول في كل أرجائه التي قد حانت. عدنا إلى الأرض الطاهرة، أنا لا أزال في البدايات الأولى مع الحياة والتأقلم. عدنا فالوطن يناديا، والاشتياق إليه ليس لوحده من جلبنا. أبي سعيد وأمي سعيدة بالعودة. الإقامة في فرنسا بالنسبة إلينا كانت طويلة وقد حان موعد حمل الأغراض وجلب الحقائب وجرها والاتجاه نحو الوجهة الأخيرة. فليس هناك عودة إلى باريس من الآن. إنني أشعر بحزن شديد، فلا أعرف مكان سوى باريس. فهذا الوطن ولدت فيه، قضيت أجمل الأوقات والسنوات. رفضت الرحيل، رفضت ترك فرنسا، فعمل أبي في فرنسا قد انتهى. الشركة التي يعمل بها أبي قد أعادته إلى الشركة التي مقرها خارج فرنسا، سوى فرع من فروعها في فرنسا. لذا أبي ونحن

كنا في فرنسا، الآن العودة إلى البلد الأم إجباري وما على أبي سوى الطاعة والتوجه في الحال، وأبي أراد هذا منذ فترة طويلة. فهو ليس غاضبًا.. مع كل بكاء، أمي تحضنني وتغطيني بحضنها الكبير، وأبي بلمساته الحنونة يساهم في مسح دموعي ومنحي الصبر والقبول الذي أنا بحاجة إليه الآن أكثر من أي وقت مضى. وضعنا أقدامنا الأولى في بلد لا أعرفه، لا أحبه، كل ما أعرف عنه أنه العدو الذي لا يرحم، والمستعمر الذي ينهب بلا توقف أو خجل. لم أكن أعلم أن الذهاب إلى مكان غريب، وأي مكان، مكان قد لا يرحبون بي، لن أكون فيه بحريتي، ولا كما أريد. فالأمر صعب وأصعب مما كنت أظنه. كلما أمشي خطوة أجد نفسي أتراجع. أمي تشدني من يدي اليمنى، وأبي من اليد المتبقية، يسحبونني إلى الداخل، وحتى هما غير راضيان.

دخلت هذا البلد الذي ليس بلدًا ولا وطنًا. فهو لا أرض له، لا وطن له، جعل من أرض الأحرار الأبرياء أرضًا له، بنى وطنه وحكومته وقوانينه الظالمة التي تطبق فقط على المالك وصاحب الحق. أنا بعمر

العشر سنوات، عرفت هذا المكان الذي أضع عليه أقدامي، وصديقي الجزائري قد حكى لي الكثير. كانت العودة إجبارية فعدنا. المطار تغير علمه وعماله، وحتى رائحته ليست برائحة وطني التي لم أشمها يومًا إلا أنني عرفت أنه ليس وطني.

هذا ليس وطني. نعم، غبنا وأبي غاب لسنوات طويلة. تغير الذي لا يجب أن يتغير. أين علم فلسطين؟ أين أهلي؟ أين أبناء أرضي؟ أين الابتسامات والتحديات من أخ وأخت إن رأونا أقبلوا إلينا بالورود والقبلات والترحيب؟

من هؤلاء؟ أبي سيقع أرضًا من الصدمة. أمي سوى تنظر تائهة غير حاضرة. أنا أعرف هذا العلم الأزرق والأبيض. أبي سوى الصمت قد امتلكه وأنا أسأل بلا توقف. لماذا نحن هنا؟ ماذا نفعل بإسرائيل؟ أبي يا أبي إنها إسرائيل، إسرائيل يا أبي. كيف نكون هنا وعلى أرضنا المسروقة من طرفهم؟ هناك شيء لا أعلمه، هناك ما أخفوه عني أنا متأكد. كيف نكره إسرائيل وكيف نحن الآن متواجدين بقلب إسرائيل؟

خرجنا من المطار على أمل أن يكون المطار فقط إسرائيلي. لم نتفاجأ فهم بقلب وبعمق فلسطين يحومون بالقوة والسلاح. هناك أحد من بعيد يناديا. تقدمنا نحوه، قدم من قبل الشركة لاصطحابنا إلى المكان الذي سنقيم به. وصلنا واتجهت إلى إحدى الغرف مباشرة. دفعت الباب فانقفل. حبست نفسي فأنا لا أطيق هذا المكان ومن فيه ولا أود العيش والاستمرار هنا.

أمي تناديني وترفض جلوسي وبقائي وحدي منفردًا. وأنا لا أسمع، سوى أبتعد وأهرب وأطلب المغادرة الآن. جاء الليل وخرجنا نحن الثلاثة وكلنا أمل أن هذه فلسطين لا إسرائيل. تجولنا فقط بالقرب من المكان المنزل المتواجدين فيه. رأينا الشعر اليهودي الطويل المضفور والقبعة اليهودية وبشر بهذه الهيئة كثيرون من حولنا يمرون ولا يتكلمون. مشينا أكثر لمحنا أنوار ملونة، إنه المعبد اليهودي. بقي الأمل واستمرينا في المشي. لا وجود لكلمات عربية سوى اللغة العبرية بكل جدار، بكل لوحة ولافتة. إنها إسرائيل ونحن في إسرائيل.

دون تفكير أو تردد تقدم أبي باستقالته. فالشركة التي يعمل بها هي فلسطينية بالأمس واليوم استحوذت عليها إسرائيل بطريقة غير مشروعة أكيد. فأبي اليوم عامل بشركة إسرائيلية ونقيم بإسرائيل وخلال أيام قليلة تم تحويل بطاقة الهوية الخاصة بي وبأبي وبأمي من الفلسطينية إلى الإسرائيلية بلغة غير العربية. ليس لنا أن نعترض أو نوافق.

كان عليا أن أنسى أنني بإسرائيل، لكن كيف أنسى وكيف سأنسى. لم يتوقع أبي يومًا ولا أمي ولا أنا أننا سنكون بقلب إسرائيل. أبي يتقاضى راتبًا من مسؤول وشركة إسرائيلية. فهذا هو المتوفر والسائد لدى الكثير من الفلسطينيين. فإسرائيل وباستمرار وكل مرة تستحوذ وتحتل الأراضي الفلسطينية. فلسطين جزء منها والجزء الكبير هو إسرائيل. والذي هويته ليست صادرة من السلطات الفلسطينية هي ممنوحة من قبل إسرائيل وبختم وتوقيع إسرائيلي، قبلنا أم رفضنا.

لم يتمكن أبي من ترك العمل. مع أنه قدم استقالته عديد المرات دون جدوى. ويقابلها الرفض دوما من قبلهم. فأبي من أهم العمال بالشركة من

عديد السنوات. فلن تخسره إسرائيل وترغب في بقائه للاستفادة منه. وما دام أبي طلب الرحيل فسيبقى لأنه طلب الرحيل والمغادرة.

رفضت كل شيء في الأول ولازلت أرفض. التحقت بمدرسة إسرائيلية. أنا الوحيد فلسطيني بهذه المدرسة تقريبًا لا أدري صراحة ولست قريب من أي أحد.

مدرسة لها شأنٌ كبيرٌ في إسرائيل، بها أبناء الجنرالات والمهمّين. كنتُ أغيب كثيرًا عن المدرسة، ولا أتكلم مع أحدٍ، ولا أحتكُّ بالغرباء فهم غريبون عنّا لأنهم إسرائيليون.

لم يكن لي أصدقاء، ولم أرغب في أن يكون لي أصدقاءٌ في هذا المكان، لا داخل المدرسة ولا خارجها. كنتُ بعيدًا عن الجميع، ألعب لوحدي. وخارج المدرسة التي لا أطيقها، كنتُ أقضي الوقت في غرفتي بالبيت، والتي لا أغادرها إلا للأكل والجلوس مع أمّي وأبي، اللّذين كان حالهما مثل حالي بل وأسوأ.

كنا نودّ زيارة الأحباب والأهل، لكن لم نتمكن من ذلك، فالخروج من إسرائيل باتجاه فلسطين يحتاج إلى إجراءات كثيرةٍ ومعقدةٍ ومتعبةٍ، ولم يحصل أبي بعد على إجازةٍ تمكننا من الذهاب.

حتى هنا، يتجنبنا الناس كما نتجنبهم نحن أيضًا. لكن لنا جارٌ صدمنا بطبيعته الطيبة. كان طيبَ القلب، محترمًا جدًا، محبًّا للخير. كان يصطحبني من المدرسة مع ابنه في الأجواء الباردة أو الحارة الشديدة. ورغم علمه بأننا عربٌ ومسلمون ومن فلسطين، لم يشعرني أبدا بأنني غريبٌ، بل شعرني بأنني قريب.

اسم جارنا جابرييل، وابنه الذي في نفس سني اسمه أوريل. رغم تجنبي له وابتعادي المستمر عنه، كان أوريل يتقرب مني حتى أصبح صديقي في المدرسة وخارجها. شعرتُ معهم بالاطمئنان الذي كنت أبحث عنه في هذا المكان الذي يفتقد إلى الراحة والطمانينة. كنا ببساطة دخلنا بقلبٍ مقبوضٍ مغلق ورفضنا بشدةٍ، كأننا في الجحيم نمشي على لهب النار.

حياتنا هنا صعبةٌ ولا نقوى على التحمل. كان أوريل يتقاسم معي كل شيءٍ ويناديني بأخي. براءة الصغار لا علاقة لها بجرم الكبار. وجدتُ في أوريل الونيس الذي يذاكر معي الدروس ويذهب معي إلى المدرسة. كان يدخل بيتنا وأدخل بيتهم، ووالدته يهوديت كانت تستقبلني بابتسامةٍ عريضةٍ وقويةٍ في كل مرة أدخل فيها.

مرّ شهرٌ وراء شهر، ولم أنسَ تلك الذكريات الجميلة في باريس، ولا يوم الامتحانات عندما كانت أمي تقدم لي قميصًا أبيض به الهلال الأحمر وبجانبه اللون الأخضر، وهو العلم الجزائري. كنتُ منذ صغري أرتدي هذا القميص في كل المناسبات الوطنية الجزائرية وحتى المناسبات الفلسطينية. كنتُ أرتديه لأنني بمجرد ارتدائه أشعر بكامل عزيمتي وشجاعتي وإرادتي. ويا للعجب كنت أنجح بامتياز.

كان القميص الأبيض الذي به العلم الجزائري كمعجزةٍ تمدني بالطاقة والقوة والشعور بأنني جزائري.

نعم، أنا جزائري منذ الولادة.

جاء الخامس من جويلية، الذي صادف احتفالية نهاية السنة الدراسية بالمدرسة الإسرائيلية. أمي اعترضت على ارتدائي للقميص ككل سنة، لأنني في أرض ووسط أناسٍ قد يهاجموننا بالتأكيد. لكنني أصريتُ، أخذتُ القميص دون علم أمي ووضعته في حقيبتي المدرسية.

وفي وسط ساحة المدرسة، وقفت وارتديت قميص الجزائر. ومن هنا بدأت المشكلة التي لولا تدخل جارنا العسكري جابرييل، لما رأتني أمي أو أبي ثانية.

تقدم جابرييل وتكلم مع أبي حول ارتدائي لقميص الجزائر، وهنا كان التهديد لأول مرة من جابرييل، لأن إسرائيل ترى الجزائر العدو الحاقد عليها والجدار الذي بإمكان فلسطين أن تستند عليه بكل ارتياحية.

أحببت الجزائر كثيرًا، وأمي دومًا تقول لي: فيك من شجاعة الجزائريين الكثير، فيك من حماسهم وإرادتهم، فيك من إصرارهم وحتى عصبيتهم بالقدر الكافي والزائد.

حتى هذه اللحظة لا ندري ما سيكون وكيف سنكمل. هل سنتأقلم، وهذا من المستحيل إلا أنه لا مفر ولا وجود لحل إلا أننا سنحاول ليكون ما نريد في القريب العاجل. هذا ما قاله لي أبي، وأنا صدقته، فهذا أبي الذي لا يكذب، وإن كذب فقد اضطر لكي لا أنزعج، لا أكثر ولا أقل.

في الصباح الباكر، انتقل أبي إلى مقر الشركة وهو يصطحب معه قرار التخلي عن هذا العمل. كتب استقالته أمامي لأطمئن أن الرحيل قريب، فقد كنتُ أبكي مع أنني لا أعرف الكثير عما يحدث في فلسطين سوى ما يعرفه الجميع بشكل سطحي، وهذا الأمر لم يكن يذكر كثيرًا في فرنسا، سوى أبي وأمي متابعان، وأنا أعرف من خلالهما. أكره إسرائيل كأي عربي حر يكرهها ويرفض كل الأعمال الإرهابية الإجرامية المنتهكة لكل فلسطيني.

بقيت أنتظر أبي وعودته أمام الباب بالضبط. تأخر على غير عادته. أمي جلست أمامي وهي تمسك يدي بقوة. لا أنكر أنه زال جزء من الخوف، فهذه أمي وموطني الأول.

بدأ السواد يحتل كل أرجاء وزوايا السماء، وأبي إلى الآن غائب، لا نعلم أين هو. اتصلت به أكثر من ألف مرة، أقسم أنه فوق الألف مرة حقيقة، لكن مرة لا يرد ومرات كثيرة يكون مغلقًا. سألت أمي: ما العمل؟ أين أبي؟ كيف نسأل عنه ونحن في بلد غريب لا نعرف فيه أحدًا؟ أمي حالها أسوأ من حالي، إلا أنها كل مرة تتظاهر بالقوة والتمسك، وكله من أجلي.

دون تفكير، ذهبت إلى المنزل القريب من منزلنا. المنزل الذي كنت أشاهد أصحابه بشكل قليل جدًا وكأن لا أحد بالمكان. بدأت أطرق الباب في الأول بشكل عادي، وبعدها بقوة تخيف من بالداخل. ردت امرأة خلف الباب، وقالت: من هناك؟ قلت لها: أنا سادن تالين أسكن بالقرب منكم وجئت أطلب المساعدة، رجاءً ساعدونا.

لم يفتح الباب إلا بعد ربع ساعة تقريبًا. خرجت امرأة كبيرة في السن، لم أستطع أن أحدد عمرها، إلا أنها أكبر من أمي وحتى من أبي بكل تأكيد. لم تصرخ في وجهي ولم تتعصب، كانت لطيفة جدًا. لامست خدي بكل حنان، وقالت لي: اهدأ واطرد عنك الخوف، فأنت في أمان هنا، لا تقلق.

وأنا أبكي وأرتجف، ولساني مربوط حقيقة. كانت هناك أريكة لشخص بالقرب من الباب، جلست عليها وأحضرت هي كوب عصير، لم أرفض شربه. شربته وكأنني العطشان الذي سار أسابيع في نواحي وضواحي الصحراء. بدأت أشعر أن حالتي تتحسن وأنني قادر على أن أحدثها بوضوح، الحديث الذي تعرى من الخوف والارتباك.

اختبأت في حضنها وأنا أبكي البكاء الصامت وأقول: أبي، أبي، أبي. أخبرتها بكل الحال، وهي كانت مستمعة جيدة، لم تمل وسمعت حتى دقات قلبي وسارت على نغمتها المضبوطة كالعازفة التي تتقن أصابعها اللعب على أعمدة العزف والنغمات.

حالها مثل حالنا، فهي مثلنا لا تعرف ولا تستطيع أن تعرف أين أبي. قالت لي: ستعتاد، ستتعود فاصمد من الآن. وأنا في الأصل صامد، والوضع أصلب من صمودي.

لم أرد الرحيل، بقيت معها أنا وأمي الليل كله، حتى جاء يوم جديد وأنا بجانبها ورأسي في حجرها. كانت حنونة مثل أمي بالضبط.

استيقظتُ فزعًا ولا أتذكر ما حدث إلا وأنا في أرجاء منزلنا الذي ليس منزلنا، أنادي على أبي فقد يكون عاد، قد يكون نائمًا من التعب، وأبي لم يعد.

ما أبشع المكان الذي تشعر فيه أنك لست الغريب الذي يتغرّب وفقط، وإنما الغريب الذي لا يطيق المكان وأصحابه. أناسه غريبون، لا يتحدثون مع الغرباء لأسباب لا نعلمها، وكأنهم لا يثقون إلا بأنفسهم ومن يعرفونهم ومن هم منهم وفقط.

ركبنا تاكسي ونحن في الأصل لا ندري أين نذهب أو أين أبي لنذهب إليه، أو أين هو مقر الشركة لنكون أمامها ونسأل من فيها: هل جاء أبي؟

ركبنا التاكسي ووجدنا أنفسنا السيارة تسير بنا تقريبًا بكل المكان والشوارع ونحن تائهان، والسائق سوى يسألنا أين تذهبون، وفي الأخير أنزلنا من سيارته حتى أنه لم يأخذ الأجرة، ففي الأصل ليس بحوزتنا الشيكل الإسرائيلي.

وسط شارعٍ كبيرٍ به ممرات كثيرة وواسعة وعمارات ومباني عالية شبيهة بالمدينة العجيبة التي بها كل شيء عالٍ ونظيف وجميل، ونحن وسط هذه المدينة نلتفت يمينًا ويسارًا لا نعلم أي اتجاه نسلك ونسير ونتجه.

ونحن نمشي على أمل أن هذا الطريق سيوصلنا للمنزل، وجدنا سيارة أمن وقفت أمامنا واصطحبتني أنا وأمي بالقوة. وبعد دقائق وجدنا أنفسنا في مكان لم نستطع تمييزه أو تحديد ما يكون، وفجأة لم أجد أمي أمامي سوى رجل وامرأة، ومن هناك رجال آخرون بالزي الأمني.

مسكتني المرأة من يدي وأدخلتني إلى غرفة لا يوجد بها شيء فارغة سوى كرسي وطاولة بها نقاط دم.

جلستُ وبدأ هذا يسألني، والآخر وراء سؤاله يسأل، والكل يسأل في الوقت ذاته وأنا لا أرد، وأرد على السؤال بالسؤال: أين أمي وأبي أيها المجرمون؟ إلا أنني تلقيت صفعة من المرأة، فاندهشت لأنني كنت أظن وأحسب أن العنف ليس عند النساء، فأمي حنونة، وجوليا الأمريكية جارتنا حنونة كذلك، فكيف تكون هذه المرأة بهذه القسوة؟ فإنها الجندية الإسرائيلية، فلن تكون سوى كائن بلا مشاعر وأحاسيس وبلا رحمة وشفقة.

لم تخفني الصفعة ولا المكان، بالعكس ازددت قوة وصمودًا وثباتًا. ومع كل سؤال، كنتُ أقول لا أدري لا أعلم، فكان هذا الرد الأول والأخير لكل الأسئلة والاستفسارات.

طلبتُ المغادرة والرحيل والذهاب عند أمي، فلم أعد أطلب الذهاب عند أبي، ليس لأنني نسيته أو أنه لم يعد مهمًا، فأبي قد يتحمل لكن أمي لن تتحمل.

بقيت لساعات بتلك الغرفة. جعت وتعبت ونعست، ورغبت كثيرًا في الأكل والنوم والذهاب إلى الحمام، لكن لا أحد يستجيب. مرت الساعات كما مرت إلى أن وجدت نفسي في مكان كالمعسكر، مكان به بيوت صغيرة جدًا وسيارات عسكرية بكل زاوية. وأنا أمشي وأشاهد بدقة شديدة لأعرف أين أنا وما هذا المكان. سرت مع من اصطحبوني وأدخلوني إلى غرفة ليست بمبنى، غرفة بالساحة بابها من قماش وبالداخل أربعة أسرة، وقالوا لي: لك أن تنام الآن.

دون شعور مني بدأت أصرخ وأشتم وأطالب بالرحيل إلى أمي وأبي، والجندي يقول لي: ستبقى هنا ولا تصرخ أيها الطفل العصبي. عندما تأكدت أن صراخي لن يجدي نفعًا ولن يجمعني بأبي وأمي، سكتُّ

وطلبتُ العشاء، وأحضروا لي وجبتي التي لم تشبعني ونمتُ، إلا أن أيقظوني هم بالصباح.

بمجرد ما فتحتُ عيناي، وجدت أناسًا فوق رأسي، وأحدهم أعطاني حقيبة مدرسية ولباس الجندي الصغير، وقال لي: تجهز خلال عشرة دقائق لا تتأخر لكي لا تُعاقب.

بدأت أطبق الأوامر، وكأنني أسايرهم إلى أن أعرف أين مكان أبي وأمي، وفعلت ما طلب مني في الوقت المحدد، فأنا ألبس القوة والشجاعة إلى أن أرى أمي وأبي من جديد.

البدلة العسكرية التي ارتديتها كان بها العلم الإسرائيلي. لبستها وأنا أشعر بانزعاج واشمئزاز كاد أن يجعلني أتهور وأمزق الذي أرتديه، إلا أنني استطعت أن أتمسك في كرهي وغضبي بشكل كبير، كما علمني أبي بأن لا أنفعل بسرعة وأصبر إلى أن يأتي الفرج قريبًا.

الوقت وكأنه يمر وكأنه لا يمر، لا يمر لأنني لا أرغب بالبقاء حيث أنا، وأنا بعيدة عن الأهل والأحباب، وأنا بحضن العدو. ما عليّ سوى أن

أتظاهر بأنني بخير وبألف خير لكي أصل لمبتغاي، ولا أعرف إن كنتُ سأنجح أو كيف سأتخطى كل الذي أنا فيه وأعيشه. إلا أنني عندما أتذكر أن هناك هدفًا قويًّا وبالغ الأهمية، أشعر أنني أتعايش والوقت يمر كيفما مر، والأمور التي ليست على ما يرام هي على ما يرام.

تعلمتُ واعتدتُ على الاستيقاظ باكرًا جدًّا، فليست هناك أمي التي تخشى أن أستيقظ باكرًا فتخلق الهدوء اللازم وتوفره لكي لا أنزعج. ليس هناك أبي جالس على طاولة الفطور يناديني ويصر على أن أتناول كل الموجود على الطاولة. لم يعد هناك ما يجعلني أنام النوم العميق الذي به الأحلام السعيدة الممتعة الآمنة، ولا الفراش الدافئ بحضن أمي وقبلات أبي. الأيام تتشابه والإحساس واحد، والشعور فقد الكثير منه، فما عساني أن أفعل؟

إنني أصبر ليتحقق الحلم، فما عليّ سوى أن أصمد وألزم الهدوء وأرتدي الاتزان، وأخذ من الصبر كله لأكمل.

لا بد من رسم الخطط بدقة وتأنٍ وذكاءٍ شديد. لن يصعب عليّ ذلك، فالتخطيط لي والتنفيذ مهمتي الأولى.

أين أنتَ يا أبي؟ فإنني أحترق بدونك. وأين أنتِ يا أمي؟ فإنني أموت ببُعدكِ. ولا أفكر في الانتحار دون أن أراكِ وأطمئن، فلن يكفيني سوى الموت شهيدًا بطلًا من أجل الوطن فلسطين ومن أجلكما.

بدأتُ أحمل السلاح وأتدرب عليه، وبدأتُ أكتسب القوة التي سأحارب بها دون توقف إلى أن أقضي عليهم.

أنا أطبق الأوامر وأسمع وأستجيب، أنا المطيع الذي لا يسأل كيف ولماذا ومتى.

إنهم سعداء بالتزامي ومطمئنين، إلا أنهم غير متأكدين بعد أنني في صفهم ومعهم مهما يكن. إلا أنهم مستمرون، فهم متأكدون أنني الفتى الشاب الذي إليهم سينضم الانضمام الكامل بالعقل والقلب والروح. وأنا معهم وليس اختياري، ولست معهم بالأصل، وهذا اختياري الثابت وقراري الأكيد.

تعلمتُ أشياء كثيرة، أحضر دروسًا وأتدرب وأمارس مختلف الرياضات القتالية وغيرها.

يجهزونني من أجل العدو وأنا أتجهز من أجلهم، فلن يلدغهم إلا أنا، ولن أطعنهم إلا وأنا أواجههم. فإنني أتوعد وأهدد بصمت، وسأنفذ في القريب العاجل ولن أتأخر.

أنا سريع التعلم، فقد اكتسبتُ الكثير من المهارات التي جعلتني أتفوق على من معي في هذا التجنيد.

أستيقظ قبل الوقت بكثير، وأنا بكامل لياقتي وثيابي جاهز للتحرك والانصراف عند الصفارة الأولى.

لا أشتكي لا من التعب ولا من الضغط ولا من أي شيء، فأنا جيد وحتى ممتاز في التحمل. وإنني أتحمل، فالحلم كبير ويحتاج إلى الكثير من الوقت والقوة والقدرة، وأنا ها أنا أستغل كله وأستعين بكل رغباتي وقدراتي وإمكانياتي في أخذ الضروري والذي أحتاجه لأواجه بحلتهم وأنتصر في قلب أرضهم وحلبتهم.

ستفتخرين بي يا فلسطين، ويا أمي، فأنا أجتهد وكثيرًا. ها أنا أتعب وأسقط ولا أستسلم وأنهض في نفس لحظة السقوط.

آآآآآآه يا أبي، يا ليتنا هربنا ولم نعد، ولكن الأحسن أن كل هذا قد حدث لأحقق البطولة التي حلمت بها منذ البداية وعند الإدراك والوعي الأول، إلا أن الصعب فرقنا جميعًا.

لم أؤمن بالعجز يومًا، ولست عاجزًا وأنا بمنزل العدو. فأنا اعتبرته بيتي الذي لا أرغب في البقاء فيه ولا مغادرته مبكرًا.

سأبقى لأدمر ما يمكنني تدميره، الأثاث الأشخاص.

أنا بمكاني باق ليزداد الكره فوق الكره، ومن هذا الكره يكون العقاب شديدًا، فلن يعاقبهم إلا أنا وقد بدأت أتجهز وأستعد كما يلزم.

لا أدري من أين البداية ولا كيف هي النهاية، فأنا أصعد السلم ببطء لكي لا يحدث العكس مما أرغب وأخطط.

أعاقبهم على الذي أنا فيه وأهلي فيه وفلسطين فيه، سوى الفلسطيني الحر الذي لا يهاب الموت وإنما العدو يهابه ويختبئ عند رؤيته.

لم يعد يكفيني أن أكون الجندي المطيع المجتهد فقط، فلا بد أن أغير موضعي بأن أتكلم وأخطط معهم وأشاركهم في المجالس لأكون قريبًا عالمًا بما يحدث وما سيكون وما هو المخطط لأمنعه أو أجد طريقًا لعرقلته وإيصال الخبر للآخرين من الجهة الأخرى من المقاومين.

بدأت أجعلهم ينتبهون إليّ أكثر من الأول، وأكون نقطة انطلاقهم التي طالما انتظروها وجهزوا لها، وأنا هذا ما أريد لأتحرك وأسير نحو الهدف وأعرف كل الطرق من خلالهم إلى أين تؤدي، فأنا لا أعرف شيئًا، لا كيف أخرج ولا كيف أعود وإلى أين أذهب. وقد نجحت، فلم أعد الجندي المحاط بالمعسكر فقط، وإنما خارجه، وأول خروج للجندي الفلسطيني في إسرائيل هو المسجد الأقصى.

فكان لا بد أن أثبت أنني الإسرائيلي الحقيقي الذي لن يخونهم مهما كان، وهذا بالأمر السهل الذي هو صعب جدًا.

خرجت مع الفريق متجهين إلى الأقصى لمنع المصلين من الصلاة وضربهم. وصلنا إلى المسجد الأقصى الذي أراه للمرة الأولى، مكان مليء بالهدوء والسكينة، تشعر فيه أنك مع الله وفقط رغم توافد الناس وزحمة الدخول والخروج. مكان هادئ رغم الازدحام، مكان لا يشبه أي مكان.

الذي شعرت به وأنا في المسجد الأقصى جعلني لا أقوى على التحرك سوى شغوف جدًا لدخوله والصلاة فيه والدعاء بأعلى صوت وأنا أبكي، إلا أنني لا أستطيع فعل كل هذا وسيحدث هذا قريبًا. فكيف أضرب المتجه إليه وأحاصر المكان منعًا من الدخول وتلبية الشعور الذي جرهم وجرني؟

كان لا بد أن أتحرك وأتصرف بسرعة لكي لا أشارك في هذا الفعل اللاإنساني الإجرامي وأنا الفلسطيني المسلم.

سمعت اثنين يتحدثان خلفي وأنا واقف أحمل السلاح وأرتدي الزي، وأحدهم يقول للآخر: ليتنا نستطيع أن نجبرهم على أكل عشبة

السنامكي التي هناك فيصابون بالإسهال الشديد الذي يرقدهم لبضعة أيام ويجعلهم يهربون من هنا من شدة الألم والرغبة في دخول الحمام.

بمجرد سماعي لحديثهما ودون أدنى تفكير، اتجهت بخفية نحو العشبة بحجة أنني سأتفقد المكان، وأكلت ما استطعت أكله لأصاب بالإسهال، وبالتالي لن أتمكن من إتمام هذه المهمة القذرة في أطهر مكان زرته وسمعت عنه وتواجدت به.

وفعلًا تحقق المراد خلال دقائق، فبدأت أشعر بألم ودوران ولم أعد أقوى لا على الوقوف ولا على الجلوس، وأصرخ بأعلى صوت.

مرت الجارة الأمريكية من أمامي وهي ترتدي الحجاب الملون وتود الدخول إلى المسجد، ودخلت دون عناء وأنا في مكاني أعاني من آلام لا توصف.

تم نقلي إلى المستشفى في وقت وجيز حيث تلقيت العلاج اللازم كما يجب. من حسن حظي أن العملية لم تتم كما طلبت مني، وتمكنت من مغادرة المسجد الأقصى لكي لا أمارس الظلم العلني وأنا لست بظالم.

مر الأمر وكأنه لم يكن، وكنت السبب في انصراف جميع الجنود من هناك. فهم الجبناء الذين يخافون من ظلمهم ومن أنفسهم. حتى عدت إلى المعسكر، وأنا لم أعد أتحمل ما يحدث في فلسطين والحرب التي على غزة، التي لا يريدون إنهاءها إلا أن يقضوا على الذين فيها ويأخذوا الأرض ويسيطروا على جميع المداخل والمخارج، وبذلك لن يكون هناك وجود لحركة حماس التي أرعبتهم وجعلتهم يبدأون الحرب ولا ينهونها خوفًا أن ينتهوا هم.

يجب أن أقترب من الكبار أفضل وأمسك معهم صندوق الأسرار، لكن لا أدري كيف سأفعل ذلك. فأنا أنضم إلى مجالسهم الممنوعة المليئة بالمحرمات والكبائر من شرب الخمر وتعاطي المخدرات والزنا بجميع أنواعها وأشكالها. رغم أنني بعيد عن كل هذا وأنا في قلب كل هذا، فأنني أتظاهر وأكتفي بالتظاهر والتمثيل أنني أشرب وأتعاطى، إلا أن الوضع غير ذلك. لأول مرة أكتشف أنني بارع في التمثيل وتجسيد

العديد من الأدوار. هذا قد أفادني كثيرًا خلال تواجدي في إسرائيل ومعسكراتها وفي حياةهم القذرة البشعة بكل ما فيها.

بدأت أركز في الاتجاه الذي يريني المخفي والمستور بكل ما فيه، فكان لا بد أن أكون فطنًا وحذرًا وذكيًا في الوقت ذاته. لأن الوصول إلى الغرفة السرية لن يحظى به أحد من الجنود الإسرائيليين، فما بالك أنا الفلسطيني الأسير عندهم.

أبراهام، الضابط القائد الأول في المعسكر المتواجد أنا فيه. رجل عسكري بامتياز، منضبط وصارم وحاد اللسان وقوي الجسمان والعضلات ولا يتساهل مع أحد. كل مرتكب خطأ هو خارج المعسكر، والمتعدي للحدود ميت. شخص ظالم بلا نهاية، فهو العقل المدبر والمنفذ بدقة وحنكة التخطيط. ذكي بارع في الغدر والخيانة، لا يثق بأحد مهما كان. الكاتم للسر ذراعه الأيمن.

اقتربت منه شيئًا فشيئًا وقد استغرق مني هذا الأمر فترة طويلة، إلا أنني لم أكتسب ثقته اللازمة كما يجب والتي تؤهلني لأن أكون ذراعه

الأيمن. فأنا في النهاية الفلسطيني الذي خطفوه ليكون معهم وعندهم وتحت صرفهم، لا ليكون واحدًا منهم بالفعل وبالأصل.

أصبحت قريبًا نوعًا ما منه، أشرب معه القهوة وأرافقه في مختلف المعسكرات الإسرائيلية، وهذا بالأمر الجيد وأهنئ نفسي على هذا.

أنا لا أقوى على مضي سنوات أخرى لأكون معه جنبًا إلى جنب وأشاركه الكبيرة والصغيرة. فلا بد أن أجد أبي وأمي وأُنفذ مخططاتي وأصل للهدف. فقد مر الكثير من الوقت الذي لم أتوقعه، إلا أن تحقيق الحلم في الأصل يتطلب الكثير من الوقت والانتظار والصبر الكامل والتضحيات.

سئمتُ صراحةً من المعسكر والبقاء فيه طوال الوقت.

عندما سمعتُ أن هناك فريق سيخرج متجهًا إلى الأقصى فرحتُ كثيرًا، فأنا أرغب في الذهاب لأسترجع ذلك الإحساس الذي اشتقت إليه والشعور الجميل الرائع الذي يشعرني بالأمان والدفء.

يمنحني القوة والراحة والاستمرارية.

كنتُ ضمن الفريق، ولكن هذه المرة لا بد أن أكون الإسرائيلي الحقيقي الذي يخرج منه غير المتوقع.

ونحن نتجهز للانصراف، جاء خبر مفرح لهم وحزين بالنسبة لي، وهو اغتيال القائد المجاهد المحارب إسماعيل هنية في إيران. بدأ الجميع في الرقص والقفز كأن العيد اليهودي قد جاء أو أن النصر النهائي قد حل. ما كان عليّ إلا مشاركتهم هذه الفرحة بشكل خفيف جدًا.

هذا الخبر جعل الفريق يخرج قبل الوقت بساعتين. كانت الوجهة الأولى إلى المسجد الأقصى، حيث تواجدنا هناك. بدأنا نستفز المارة بسعادتنا وفرحتنا بموت القائد إسماعيل هنية. رغم أن الفرح عادةً ما يصدر عنه الجيد والحسن، إلا أن الجندي الإسرائيلي عندما يفرح يمارس عديد الجرائم

والانتهاكات بكل أنواعها وأشكالها، وكأنها الفرصة المباح فيها كل شيء والمنتظرة طويلًا.

حاولت قدر الإمكان الابتعاد عما يفعلون ويمارسون، إلا أن الدور قد جاء لأبرهن ما يجب برهانه، وهو عدم الخروج عما يفعلون وإنما مشاركتهم بدون قناعة واقتناع وبعيدًا عن الرضا والقبول.

عندما شعرت أن هناك شخصًا من عامة الناس يود الاقتراب مني، بادرت بالاقتراب منه. طلب مني أن أضربه ووضع ورقة كرسالة في جيبي، ودخلت معه في شجار، وكان يطلب مني أن أضربه لكي لا ينكشف أمري. وفعلًا هذا ما حدث، والذين كانوا معي كانوا سعيدين ويصفقون لي. تارة أضرب وتارة أتظاهر بذلك، حتى سقط ذلك الرجل أرضًا لا يقوى على التحرك أو التنفس.

جاء المارة وحملوه وأخذوه، وأنا كنت مستعجلًا لأخرج الورقة من جيبي وأقرأها، إلا أننا بقينا في المكان حتى نهاية النهار. خلال هذا الوقت دخلت المسجد الأقصى طالبًا الدخول إلى المرحاض. لا أستطيع وصف ما أحسسته عندما وضعت خطواتي الأولى داخله. كيف أصف

ما عشته وأنا أتجول داخل المسجد، حيث كل زاوية فيه تحكي قصة لا أعرفها وتشعرني بشعور جديد لم أشعر به طوال حياتي القصيرة.

هناك شيء يدفعني إلى أن أتوضأ وأصلي، ولكن كيف سيتم ذلك وأنا الإسرائيلي في نظر الجميع. دخلت وخرجت عدة مرات، وفي كل مرة أخرج فيها كان هناك شيء يسحبني للداخل فأعود أدراجي إلى الوراء، حتى وجدت نفسي في قلب المسجد الأقصى. في هذه المرة الأخيرة التي تسبق الانصراف، غامرت وخاطرت وتوضأت، وفعلًا صليت بعد أن نزعت جميع ملابسي ما عدا السروال الداخلي، وصليت وما أروعها من صلاة! رغم أنني طوال هذه السنوات كنت أصلي بعيدًا الخفاء ولم أترك صلاتي أبدًا.

خلال أيام, وبعدها مخيم غزة المخطط له في القريب العاجل .دعوت الله كثيرًا وبكيت كثيرًا، فإنني أخاف أن أكون المذنب الذي لن يغفر الله ذنبه، مع أنني لم أقتل أحدًا بعد، لا من الأعداء ولا من الأهل وأولاد الوطن الجميل رغم الدمار والفقر والحزن والمعاناة والآلام.

عشقت الذهاب إلى المسجد الأقصى، ومع كل فريق كنت أخرج دون تردد، فإنني العاشق الولهان الذي لا يصبر على البعد والفراق، ولا بد من رؤية ما أعشق ولقائه بين الحين والآخر.

بحلول الظلام، كنا في المعسكر، وكان كل واحد فينا بغرفته ومكانه الخاص. استعجالي لم يجعلني أفعل شيئًا سوى أنني ذلك الملهوف الذي يريد أن يعرف ما الموجود بالورقة. تأكدت أن لا أحد بالجوار. جلست وأخرجت الورقة، إذ هي رسالة من قيادة حماس.

لم أصدق ما قرأته. فقد كانت رسالة من المرحوم القائد إسماعيل هنية قبل اعتقاله ووفاته. كانت رسالة قصيرة لكنها شاملة وكاملة وواضحة. جاء فيها: "نعلم أنك الفلسطيني سادن الريش أبو حسن، وعلى علم بما تفعله في إسرائيل وفي الجيش الإسرائيلي. نعلم القصة كاملة وقد حان الوقت لتكون معنا وتنضم إلى جماعتك وتثبت ولاءك لهذا الوطن والأهل. الساحة لك لتكون بطلًا من الأبطال الأوائل لهذا الوطن، ونحن معك ونمدك بكل ما تحتاجه."

كانت رسالة واضحة لكنها فاقدة للكثير من التفاصيل، وكأنهم قدموا لي القماش والتصميم يقع على عاتقي، وأنا من يختار ويجهز كل ما يحتاجه القماش ليكون فستانًا أو بدلة متكاملة تخطف الأنظار وتكون حديث الجميع غدًا وبعد غد.

وضعوني في اختبار، إما أن أنجح فيه أو أرسب وأفشل فأخسر كل شيء. والخسارة لم تكن هدفي. لذلك لن أخسر، وأنا أعلم أنني لن أتلقى منهم رسالة بعد فترة إلا بعد أن أقوم بعملية أثبت فيها ولائي وأنني أستحق الاهتمام والالتفات إليَّ والاعتماد عليَّ في القضاء على العدو، أو على الأقل إفشال مخططاته واحدة تلو الأخرى. وأنا جاهز منذ سنوات ومتدرب على أعلى مستوى.

دخلت على القائد أبراهام في مكتبه بالمعسكر وهنأته بعيد ميلاده، وحتى أنني جلبت له هدية متميزة. ودون تردد أو تفكير منه، دعاني إلى الحفلة المقامة في بيته غدًا. وأثناء تبادل الحديث، قال لي إنه يشعر بدوار شديد سيوقعه أرضًا. أسندته، وفي هذه اللحظة كان عليَّ أن

أستغل الفرصة وعرضت عليه أن أنقله إلى منزله، فوافق مباشرة بسبب قلة الوعي والإدراك.

عند وصولنا إلى المنزل، كان تقريبًا فاقدًا للوعي. تركته على أرضية المنزل مستلقيًا وبدأت أبحث في أرجاء المنزل. وجدت غرفة مغلقة لم أتمكن من فتحها ولم أجد مفتاحها. لم أفكر وبكل شجاعة كسرت الباب، إذ وجدت مخططات وخرائط. بدأت أبحث بتأنٍ وهدوء وببطء شديد، فعرفت أن مستشفى الشفاء ومستشفى ناصر هما الهدف المستهدف.

تركت طاولة التخطيط كما هي إلا أنني رسمت الشكل الدقيق لها بمخيلتي، وعدت إلى القائد أبرهام ونقلته إلى المستشفى.

بقيت مهمة كيف أوصل ما عرفته الى جماعة حماس، إلى المجاهدين والثوار بغزة، وما كان عليا سوى الخروج مع الفريق نحو المسجد الأقصى على أمل أن أجد أحد هناك بانتظاري، وهذا ما كان بالضبط.

كان هناك شخص يرسل لي إشارات مختلفة وبعدها دخل إلى المسجد ودخلت ورائه وبإحدى الزوايا الضيقة البعيدة عن الأنظار أخبرته بكل

شيء ، وهو بلغني بأن القائد الجديد لحركة حماس هو يحيى سنوار، وهو يطلب مني القضاء على أبرهام العقل المدبر الفتاك، وأنا من أجد طريقة ذكية وممتازة لاعتقاله والقضاء عليه ليفرح كل فلسطيني بموته.

أن مهمة سحب روح القائد أبرهام لا بد أن تتم بشكل هادئ وغير مباشر، فأنا بحاجة إلى إيجاد طريقة ذكية لا أترك ورائي أثر ولا أدلة تنهي مخططاتي فهذه سوى البداية وفقط.

ذهبت إلى منزل القائد أبرهام؛ لزيارته بعد خروجه من المستشفى، لم يكن هناك أحد بالمنزل، تحدث معه قليلًا وبعدها أخرجت حقنة من جيبي وحقنتها في رقبته وعينه قد ثقبت عيناي. مندهش مصدوم، وأنا قلت له: هل كنت تظن أن الفلسطيني سينسى أصله ويصبح إسرائيلي؟ فرد وقال: ليتك كنت فلسطينيًا والتقط أنفاسه الأخيرة.

غادرت المنزل بعد نجاح المهمة كما يجب أن تكون، وعُدت إلى المعسكر وكأن شيء لم يحدث ولم يعلم أحد بموته إلا بعد يومين ومن رؤيته الوهلة

الأولى تأكدوا وبشكل كبير أن هناك من قتله بشكل احترافي جديد وغير مألوف؛ لأن هناك لعاب بفقاعات على فمه.

حزن الجميع عليه وأنا منهم بالتمثيل والتظاهر، وبدأت مهمة البحث عن الفاعل وخلال هذا الوقت أنا كنت أتنقل من معسكر إلى معسكر وبإحدى المعسكرات ليلًا تمكنت من القضاء على ما يقارب 270 جندي إسرائيلي بغرفته ليلًا. من خلال ابرة أحقنا برقبتهم وهم نائمون وبعد دقائق من الحقن يموتون مباشرة، دون مقاومة، ودون أدنى عناء، وبصمت تام.

ومع عودتي إلى معسكري قمت بالأمر نفسه ومع الجنود الذين سهلت عليا مهمة القضاء عليهم، وخلال ليلة واحدة تمكنت واستطعت ونجحت في قتل الكثير من الأعداء دون أن أكشف عن نفسي.

تم اعلان حالة الطوارئ بالمعسكرات وبإسرائيل كلها وعم الخوف المكان والأرجاء والنفوس والقلوب وأنا بداخلي أضحك على حالهم هذا وخوفهم الزائد، خوف الجبناء.

صفارة الإنذار تدوي بكل الأرجاء فعدد الموتى يتزايد والفاعل مجهول.

غادرنا المعسكرات متجهين لمحاصرة المداخل والمخارج الشمالية والشرقية ومعها الجنوبية الغربية.

خلال ساعات قليلة نشرت حماس فيديو موجه لإسرائيل على أنه هذا مجرد رد بسيط وصغير والردود القوية الكبيرة قادمة.

زاد خوف وتوتر إسرائيل وكل من فيها أكثر وأكثر وأنا ملزم في القريب العاجل اخبار رجال حماس بالمخطط والهجوم المجهز للمستشفى والمخيم.

وكان من قبل الرجل الشهم الذي أقابله في الأقصى قد أعطاني كلمة سر "الحرية" وقد سمعت عن النفق الذي بنته حماس باحترافية والذي لم تستطيع إسرائيل الوصول إليه وبسببه صعب القضاء على حماس والرجال الأبطال.

قضيت وقتًا أبحث عن مدخل أو بداية أو نهاية لهذا النفق ولكن دون جدوى.

وأنا مع الجنود نسير ونؤمن المكان القريب وحتى البعيد من المعسكرات لفت انتباهي شجرة متواجدة بمكان متطرف كانت شجرة زيتون ضخمة تراها على بعد مئات الأمتار.. صراحة هذه الشجرة شدتني فتقدمت نحوها بغرض التقاط بعض حبات الزيتون لتذوقه لأول مرة.

ولأنني شديد الانتباه والتركيز لاحظت أن الشجرة غصنها به وريقات متواجدة بغير مكانها بدأت ألامس تلك الوريقات إذ بنصف الغصن مفتوح وكأن تحته بئر بلا مياه، أدخلت رأسي وأنا أردد وأقول الحرية الحرية الحرية، لا لشيء

لأننا سئمنا من الوضع ونرغب ونطالب بالحرية، فجأة سمعت صوت رجل يقول: "من هناك؟". مباشرة ذهب تفكيري إلى نفق حماس، فقلت: "أنا سادن الريش أبو الحسن". قال لي: "تفضل، لقد عرفتك"، وأنا بسرعة أخبرته بما أود إخبارهم به وانصرفت في الحال.

وأنا أعود أدراجي إلى الوراء، وجدت أحد الجنود ورائي يسألني ماذا أفعل وماذا يوجد هنا، وما كان عليَّ سوى أن أطعنه عدة طعنات مميتة وألقيت به في هذا البئر ليتم التصرف فيه من قبل الجماعة.

من هذا المكان، وعن طريق كلمة السر، كنت أوصل كل الأخبار دون عناد وفي وقت قياسي، إلى أن جاء أمر من القيادة يؤمرونني بترك المعسكر والخدمة هناك والمغادرة عاجلًا من أجل سلامتي وبقائي على قيد الحياة.

تلقيت الأمر وقبلت به، وبدأت أتجهز له. وقد حدد يوم مغادرتي، الذي قبله بساعات كنت قد زرعت العديد من القنابل والمتفجرات في المعسكرات الثلاثة المتواجدة في المكان الواحد.

خرجت مع الفريق ككل يوم للحراسة وتأمين الحدود العسكرية. حملت سلاحي ورافقتهم وأنا بالقرب من مدخل النفق، وقفت في وجه الجنود وأطلقت النار على الجميع. وقبل دخولي النفق ضغطت على الزر

وانفجرت المعسكرات بكل ما فيها من أسلحة ومعدات وأشخاص. كان الانفجار قويًا، تضرر كل ما هو قريب من المعسكرات.

غادرت، وخلال يومين كنت بمقر حماس الأصلي، حيث أقمت عندهم لمدة أسبوع. مر الأسبوع، وأرى أبي واقفًا أمامي، وسارع إلى ضمي إليه وهو يبكي بشدة وبأعلى صوت. أقام معي يومًا واحدًا، وبعدها كان لا بد عليَّ من الرحيل.

تم ترتيب كل شيء، ولم يتم إخباري أين سأذهب وأين سأكون من لحظتها. كلمني أبي وقال لي: "والدتك تريدك أن تذهب إلى الجزائر وتقيم هناك إلى أن تهدأ الأمور وتستقر قليلًا".

اندهشت وفرحت وبدأت أتساءل كيف سأذهب ومن أي اتجاه وأين أذهب هناك، ولماذا أذهب وكيف سأعيش. وأنا أتحاور مع أبي، دخلت أمي التي عرفتها ولم أعرفها. كانت نحيفة جدًا، والمرض قد انتهك الكثير من جسمها. وأنا أدقق معها لأستوعب ما الذي أصابها ولما هي بهذه الحالة، وجدت رجلها اليمنى غير موجودة.

رميت نفسي في أحضانها وبكيت بكاءً لا يمكن أن أنساه أو أتخطاه إلى الآن. قبل أن أسألها، سبقتني وقالت لي: "لا تهتم، أنا بخير. لا تقلق ولا تضيع الوقت، وغادر في الحال إلى الجزائر".

قلت لها: "دعيني أشبع منك ومن حضنك يا أمي".

قالت: "أفكر فيك وفي نجاتك، فاسمع واستجب ونفذ، ولا تكن عنيدًا ككل مرة، فهذه المرة لا عناد سيفيد ولا بقاء سيبقيك حيًا. اذهب إلى الجزائر، فإنك ستجد أناسًا يحبونك وينتظرونك، وستكون مرتاحًا وسعيدًا معهم وعندهم. بمجرد وصولك إلى الجزائر اسأل عن هذا الاسم الذي في الورق، وقل لهم: أمي ساجدة الفلسطينية".

ولا تسألني عن شيء آخر يا بني. نظرت إلى الجميع وأنا أسأل هذا وذاك كيف أصل إلى الجزائر. قالوا لي لن تتمكن من دخول الجزائر وجواز السفر عليه ختم إسرائيل، لا بجواز السفر الفرنسي ولا بغير جواز مادام الختم الإسرائيلي على الجواز. ستسافر عن طريق معبر رفح باتجاه مصر، وهناك تجد أناسًا فلسطينيين ومصريين سيسهلون سفرك

إلى ليبيا، ومن ليبيا إلى الجزائر مباشرة. ستسافر برًا لا جوًا.. برًا أسهل وأضمن، إلا أنك ستستغرق وقتًا طويلًا نوعًا ما، لكن ستكون بأمان.. أما بقاؤك هنا خطر عليك وعلى أهلك، فغادر فإسرائيل تبحث عنك في كل مكان. سافر بسرعة قبل أن يجدوك على الحدود الفلسطينية المصرية، ووقتها ستكون في قبضتهم ويكون كل شيء قد انتهى قبل وقته.

ما كان عليّ سوى الاستجابة والاستعداد السريع العاجل للرحيل. ودعت أبي وأمي التي أعطتني قميص الجزائر، وطلبت مني ألا أعود هنا ثانية وأن أبقى في الجزائر وأعيش هناك وأستقر مع الناس الطيبة الجميلة. لم يكن بحوزتي الوقت الكافي لأعاتبها وأناقشها وأرد عليها فالجميع بانتظار مغادرتي في الحال. كان لا بد أن أعيش مغامرة جديدة بجميع مخاطرها وصعابها التي سترافقني من هذا المكان إلى الجزائر. غادرت ولا أدري إلى أين ستذهب أمي وأبي.. غادرت وأنا مشتت الفكر والعقل.. حائر تائه خائف بعض الشيء. غادرت والدمع عجز عن قفل بابه..

غادرت بلا خطط وتجهيزات.. سوى غادرت لأكون ببلدي الثاني الجزائر. رافقني الأخ منذر الذي كان السهل الممتنع.. سهل ركوبي الحافلة المتجهة إلى مصر وكان معي إلى أن دخلت مصر بأمان وسلام. شكرت الله أنني وصلت بخير، فوصولي للجزائر أصبح حلم وهدف وغاية لا بد من تحقيقها وبلوغها مهما كلف الأمر.

بدأ التفتيش الأمني والتأكد من بطاقات الهوية.. منذر الرجل الشهم الذي رافقني قدم هويته وهويتي التي لم أرها بعد. سمحوا لنا بدخول الأراضي المصرية بعد معاناة شديدة وانتظار طويل كدت أصدق فيه أنني لن أمر ولن أرى الجزائر. أوصلني منذر إلى قبيلة بني الأخارسة في سيناء.. هذه القبيلة بأناسها رحبوا بسادن ترحيبًا ليس عاديًا وأقمت بجوارهم ما يقارب شهرًا لأغادر بعدها إلى محافظة مرسى مطروح. طيلة الشهر كنت أنتظر جواز السفر المصري المزور لأتمكن من السفر إلى ليبيا. انتقلت إلى مرسى مطروح مع إبراهيم العشاشي ابن من أبناء قبيلة بني الأخارسة لألتقي في مطروح بالذي سيجهز لي جواز السفر

المصري.. أين تم تغيير شكلي جزئيًا ووضع الصورة الحديثة بجواز السفر.

بقيت بمرسى مطروح 22 يومًا.. لم أرد الرحيل صراحة.. فالمكان جميل وساحر وخيالي.. الطبيعة خلابة وكأنها الجنة على الأرض قد رُسمت ووضعت بإتقان شديد من الخالق. شعرت بأمان لم أشعر به طيلة العشرين سنة وأنا مع أهل مصر الرائعين.. قدموا لي كل ما أحتاجه وكأنني واحد منهم. كنت أود أن أرى مصر عن قرب أكثر.. أرى شوارعها الكبيرة وعماراتها العالية.. أشتهي أن أرى النيل من الأعلى ومن الأسفل وأحظى برحلة سريعة على الأقل على متن إحدى مراكبه. أخي إبراهيم العشاشي أراد أن يحقق رغبتي واصطحبني إلى القاهرة، أين وقفت مندهشًا معجبًا محبًا لكل مكان وتفصيلة ومشهد رأيته وشاهدته في هذه العاصمة الكبيرة الرائعة.

حان وقت مغادرتي مصر باتجاه ليبيا. لم أسافر بالحافلة، وإنما سافرت مع السيد منصور رشيد الذي كان متجهًا إلى ليبيا، فأخذني معه

بتوصية من إبراهيم ومن التقيت بهم بمرسى مطروح الرجال الشجعان الأحرار الأبطال.

طوال الوقت لا أفعل شيئًا سوى أنني مع الله أدعوه وأتوسل إليه أن يحميني وييسر لي سفري ورحلتي الطويلة الشاقة هذه.

استغرقنا ساعات طويلة في السفر، وفي الأخير وصلنا إلى بلدية أمساعد الليبية الحدودية بين ليبيا ومصر.

كنت مع السيد منصور الذي يعمل في ليبيا منذ سنوات طويلة في تجارة الذهب. منذ خروجي من غزة لم يكن في جيبي سوى 100 دولار بقيت كما هي، ولم أحتاج إلى صرفها فجميع من صادفتهم كانوا معي وبجواري ولم يبخلوا علي بالمساعدة والإيواء ولا بأي شيء مهما كان. فقد خاطروا من أجلي ومن أجل إكمال رحلتي على ما يرام وكما يجب.

اشتغلت مع السيد منصور في مجاله المربح جدًا، وبقيت في ليبيا لمدة ستة أشهر لأتمكن من أن أبدأ حياتي في الجزائر ولا أحتاج لأحد.

بعد ستة أشهر وعشرة أيام، حان موعد سفري إلى الجزائر وتم صنع جواز سفر ليبي لأتمكن من دخول الجزائر برًا. حصولي على جواز السفر الليبي استغرق وقتًا طويلًا، فالقائم على صنعه وتجهيزه قد طلب مني مبلغًا كبيرًا جدًا. وما كان عليّ سوى أن أعمل لأحصل على المال المطلوب، والسيد منصور وقف بجانبي وساعدني، وعملت وامتلأ جيبي بما يكفي، وبالأخير السيد منصور هو من دفع مبلغ جواز السفر. فسبحان الله كل من أقابلهم وقفوا بجانبي دون خوف أو بخل أو تردد.

بدأت رحلة سفري إلى الجزائر مع الأخ مسعود السعداني الذي هو تاجر صديق أخي منصور. عندما علم أنني فلسطيني وأرغب في دخول الجزائر معه وافق في الحال وسافرنا معًا، وكانت رحلة رائعة على متن سيارته.

وصلنا مدينة الدبداب الجزائرية وبقينا على الخط الحدودي ساعات لحين انتهاء الإجراءات القانونية وأنا من كثرة الخوف والقلق كدت أموت حقيقة. ولكن الله كل مرة يرحمني برحمته الواسعة ويقف معي.

وتم دخولي الجزائر الحبيبة وأنا قد فقدت ما يقارب 12 كيلوغرامًا من وزني.

فعلًا من يرغب بزيارة الجزائر فليضحي بالكثير.

تجولت مع مسعود في عين أميناس وتشرفت بأهلها الذين بقيت عندهم أسبوعين ولم يقبلوا بمغادرتي.

دخلت الجزائر ولا أدري إلى أين أذهب، فالجزائر كبيرة وأنا لا أعرف فيها شيئًا سوى القلب مرتاح ومطمئن ويرفرف سعادة.

سألني مسعود إلى أين أنا ذاهب ليساعدني، فقلت له انتظر أرى رسالة أمي.

فتحتها وجدت أنها توصيني بالاتجاه إلى مدينة سطيف باحثًا عن عائلة الحاج. في قلب الرسالة صورة لامرأة جميلة شابة، وعلى ظهر الصورة أسماء كثيرة. لا أعرف من هذه التي في الصورة ولا الأسماء التي في الصورة، وأمي ساجدة لم توضح لي شيئًا، أبقت كل شيء غامضًا وغير مفهوم.

أخي مسعود قال لي لا تقلق، الرسالة واضحة وأنا قد فهمتها. فأنت ستذهب إلى سطيف وتبحث عن عائلة الحاج، وعندما تجدهم تأكد من أنها العائلة من خلال الأسماء المدونة بظهر الصورة. وعندما تجدهم تريهم هذه الصورة ليعرفوا أنك من طرفها وقد جئت إليهم دون غيرهم.

رافقت أخي مسعود إلى العاصمة فقد أرادني أن أزورها وأراها وقد صادف زيارتي لها مناسبة اندلاع الثورة التحريرية التي كانت العاصمة بأكملها تحتفل بها. ويا لروعة الاحتفالات وجمالها، وقفت لها حائرًا مندهشًا لم أقاوم ذلك الشعور الحماسي الثوري القوي الذي جعلني أرتدي القميص وأجري بشوارع العاصمة أصيح وأنادي "تحيا الجزائر" بأعلى صوت وبقلب نطق بحب وعشق كبير.

كنت محظوظًا بتواجدي بمثل هذا اليوم التاريخي الذي اعتدت على الاحتفال به وأنا بباريس.

وأنا أسير بشوارع العاصمة النظيفة في هذا اليوم، لم تكن فلسطين غائبة وإنما حاضرة وبقوة، والعلم الفلسطيني يرافق العلم الجزائري بكل مكان معلق وعلى ظهور الجزائريين.

عندما أحببت الجزائر لم أحبها من العدم، فكل ما فيها ومنها ويخصها عظيم وفيه النصر والحياة.

وعن نوفمبر ثورة الأحرار والأبطال والشجعان قلت:

منك يا ثورة الجزائر تعلمت

منك عشت الحدث وأنا غبت

منك أواجه العصر ولقدرا

منك رسمت الأمل وكبرت

منك الروح أفدي والدم أسكب

أزهار فلسطين بالتضحية قررت

مشاهد ثورتك يا جزائر حفرت

بالكلام كونت الصورة ورسخت

بالقلب بالروح بالنفس يا جزائر

بالذهن بالعقل عمت وزرعت

منك يا ثورة الجزائر تعلمت

منك عشت الحدث وأنا غبت

من الخطط البرامج الصيرورة

من ثورتك أنا الشجاعة سرقت

فقدت الأمل عشت اليأس

بذكراك يا نوفمبر عن الشؤم رجعت

عن الكره عن الانتقام لوطني

شغل العقل بك وعنهم رحلت

والله يا نوفمبر ملكت الباطن

بتاريخك الروح للتضحية خبأت

والله يا نوفمبر مدرستي هي أنت

علمي إبداعي وأنا بك ظهرت

ثورتك يا نوفمبر أحب القصص

كتاب أحداثك دروسها أخذت

منك يا ثورة الجزائر تعلمت

منك عشت الحدث وأنا غبت

منك أواجه العصر ولقدرا

منك رسمت الأمل وكبرت

لم أغادر العاصمة إلا بعد أسبوع بالضبط، فكان يلزمني وقت طويل لأتعمق في كل أرجائها وضواحيها. إنني بين الحين والآخر تسكن حركتي وتغيب لهفتي وأتوقف عن كل شيء حين أفكر وأنتبه لنفسي وأنا وحيد ولا أدري ما الآتي وكيف سأكون. أسئلة كثيرة واستفسارات قد أرهقتني وأسقطتني أرضًا بالتقريب. أنا في الغالب محتار ومشتت وأعجز عن التفكير وحتى المشي. فأنا أبحث عن وجهتي الصحيحة التي أقيم ما قد أقيم.

تعبت من الترحال والذهاب هنا وهناك. تعبت من طلب المساعدة والبحث عن الأمان والهروب من كل الأماكن التي قد تجرني إلى مصير صعب ومجهول أخسر من خلاله كل شيء. مع أنني الآن لا أملك سوى الدعاء والتوكل على الله.

بقي علي الآن أن أتوجه إلى ولاية سطيف للبحث عن عائلة الحاج التي أوصتني أمي بالذهاب إليهم. سافرت مع أحد أقارب مسعود مسعودي الذي كان متجهًا إلى بلدية العلمة كما أخبرني.

طوال الطريق وأنا أفكر كيف أذهب إلى عائلة الحاج وكيف أخبرهم من أنا وكيف ستسير الأمور. بقيت أفكر في كل التفاصيل إلى أن أخبرني السيد توفيق أننا وصلنا. حقيقة لا أدري كيف وصلت إلى سطيف، فإنني لم أشعر بالطريق من كثرة التفكير في أشياء سيسهلها الله وتسير كما يشاء بالضبط.

كان السيد توفيق مستعجلًا فوضعني في محطة المسافرين الخاصة بسطيف، حيث وقفت وحيدًا تائهًا لا أفقه شيئًا في هذه المدينة الكبيرة

الباردة جدًا. لم أكن أرتدي الملابس الشتوية الثقيلة التي تتناسب مع هذا الجو الذي جعلني أرتجف وأسناني ترقص وتتخبط. فأنا قد خرجت من فلسطين في الصيف ووصلت إلى الجزائر في الشتاء.

عند الساعة الثالثة صباحًا كنت متواجدًا في مكان مكشوف والأمطار تمطر بقوة. تقدم نحوي أحد المارة ونصحني بأن أجلس داخل المحطة. اتجهت نحو الداخل حيث وجدت مقهى مفتوحًا، إذ لم أشرب الشاي منذ فترة طويلة.

ذهبت لأطلب كوبًا من الشاي فلم أجد. ظنوا أنني سوري أو أردني، ولم يظنوا أنني فلسطيني لأن من الصعب سفر الفلسطيني إلى أي مكان كان. لم أخبرهم أنني أخوهم الفلسطيني. وبقي صاحب المقهى يظن أنني سوري أو أردني. فرح بي كثيرًا وقدم لي جميع أصناف الحلويات الموجودة في المقهى ومعها فنجان قهوة. وبعد لحظات اتصل بابنه الذي جاء ليأخذني إلى المنزل.

تفاجأت كيف ذلك، إلا أن هذا ما حدث بالضبط. وأنا من شدة التعب والإرهاق والبرد أردت أن أتواجد في أي مكان دافئ أستطيع فيه أن أنام أو حتى أرتاح قليلًا، كأن أستلقي على أرض مفروشة تشعرني بالدفء والراحة.

ذهبت معه حيث كانت والدته بانتظارنا في حدود الساعة السادسة صباحًا. رحبت بي العمة يمينة واستقبلتني بحضن كبير وهي تقول لي: "أهلًا ابني، أهلًا ابني تفضل لا تخجل". أدخلتني باتجاه الحمام مباشرة حيث استحممت وارتديت ملابس ابنها الذي عرسه بعد أسبوعين.

فتحت لي باب غرفة ابنها العريس الجاهزة بكل شيء، وقالت لي: "لك أن تنام وكأنك في بيتك"، مع أنني لم أحظ بهذا المكان طوال سنوات فقد كنت كضيف في كل مكان أكون فيه. رميت نفسي على ذلك السرير الكبير الناعم بفراشه الدافئ ونمت لدرجة أنني لا أعلم كم مرت ساعة أو يوم على نومي واستيقاظي، إلى أن سمعت الباب يُطرق بقوة فنهضت مفزوعًا كأن المحتل الظالم المجرم يوقظني من نومتي الجميلة.

وجدت خالتي يمينة وابنها وزوجها على الباب، كانوا يبدون قلقين وخائفين بسبب نومي العميق الطويل حتى ظنوا أن شيئًا ما قد أصابني أو أنني نمت فمت فلم أستيقظ. فعلًا لم أنم بهذا العمق منذ فترة طويلة لا أذكرها.

اعتذرت منهم واستأذنت للرحيل والمغادرة إلا أنهم رفضوا، وأقسمت عمتي يمينة وزوجها العم عمر بأن لا أغادر إلا بعد عرس ابنهم عادل الذي لم يبقَ عليه سوى أيام قليلة. ما كان علي إلا أن أوافق وأبقى، وبكل صدق وصراحة أنا مرتاح بالتواجد معهم ولا أريد الرحيل بسرعة لأنني لا أعلم أين سأذهب وأريد فقط أن أحظى أكثر باهتمامهم وحبهم الكبير، فبقيت.

هم حتى الآن يظنون أنني سوري أو أردني. في ذلك اليوم ونحن على طاولة العشاء سألني العم عمر عن حال الأردنيين، فقلت: "الحرب أرهقتنا، والعدو لا يدعنا نعيش بسلام واطمئنان، فإننا نعاني يا عمي عمر". بدأوا ينظرون إلى بعضهم وهم مستغربون وقد سيطرت عليهم

الصدمة من كل النواحي. وفي آنٍ واحد نطق الجميع: "هل الأردن بها حرب؟"

صمتُ قليلًا وبعدها قلت: لا، أنا أقصد فلسطين، فأنا سادن أبو الحسن الريش من فلسطين. نهض الجميع من مكانهم، والعمة يمينة تبكي وتقول بأعلى صوت: "فلسطين ببيتنا .. فلسطين عندنا".

وجدت عادل والعم عمر والعمة يمينة يتقدمون نحوي وأوقعوني أرضًا وهم يقبلونني ويحتضنونني، وكانت الفرحة كبيرة جدًا. مشهد غريب وجميل جعلني أفتخر أنني فلسطيني وأنني بالجزائر.

لأول مرة أحضر عرسًا جزائريًا، وما أروع الأعراس والأفراح الجزائرية بعاداتهم المميزة ولمتهم التي تشجعك على أن تبقى بينهم، ومن الصعب الرحيل والمغادرة. وفعلًا، من الصعب الموجع البُعد عنهم، فقد وجدت فيهم الأهل حقيقة وكل ما بحثت عنه وتمنيته.

كنتُ أنا أخا للعريس، فهكذا عادل كان يقدمني للناس على أنني أخوه. أصبح لديّ إخوة وأهل وأناس يحبونني ويهتمون لأمري ويتنافسون عند من أكون وأبقى.

بدأت أستوعب وأدرك لماذا أمي كانت تقول لي: "ارحل إلى الجزائر ولا تعود هنا، فإنك ستجد نفسك هناك"، ووجدتها ولا أنوي العودة ولا الذهاب إلى أي مكان.

بدأت أتشجع في البحث والوصول إلى عائلة الحاج لأعرف ما تخفيه وأخفته أمي عني، لأنني مع كل الذي يحدث معي وكيف هي الحياة معي تتغير للأفضل. نصائح أمي بدأت تجني وتنجب خيرًا ونفعًا لي.

ودّعت عمتي يمينة والعم عمر والأخ عادل واتجهت بحثًا عن عائلة الحاج. لازلت في مدينة سطيف ولم أغادرها بعد. سألت يمينًا وشمالًا .. هنا وهناك، لكنني فشلت في إيجادهم. هذه المرة المهمة صعبة ولا أدري كيف سأجدهم. إلا أنني مصر على الاستمرار في البحث وعدم التوقف مهما يكن، فقد غادرت فلسطين للقدوم هنا وللقاء هذه العائلة التي لا

أعلم لماذا سألتقي بهم ولماذا أبحث عنهم وما هي الحقائق التي يحملونها لي، فأنا لا أعرف بعد.

هناك من أخبرني أن جاره السيد عثمان من عائلة الحاج فقد يكون هو. رافقته وعرفت منزل هذا الشخص فبقيت أمام الباب لساعات طويلة على أمل أن يعود فيكون أحدًا من العائلة التي أبحث عنها أو على الأقل يعرفها فينقص عليّ مشوار البحث والتنقل هنا وهناك وأنا لا أقوى وأجهل كل شيء في هذه المدينة الواسعة الطيب أهلها.

بقيت أتردد على منزل السيد عثمان لعدة أيام لكن دون جدوى. وعندما سألت عرفت بأنه نادرًا ما يكون في المنزل، فهو يعمل ضابطًا بالجيش وأسرته متواجدة في مدينة أخرى.

لم أيأس ولم أفقد الأمل، بالعكس كل يوم أنا متواجد أمام منزله. في الأخير هناك من نصحني بأن أتوجه إلى الثكنة العسكرية هنا في المدينة فأجده هناك. وبالفعل توجهت إلى هناك ووصلت ووقفت. فتقدم نحوي أحد الجنود الحراس وسألني لماذا أنت واقف هنا وماذا تريد.

وبمجرد نطقي للكلمة الأولى والثالثة سألني بكل هدوء وابتسامة عريضة، فقلت له: "من فلسطين الجريحة". أقسم بالذي خلق السموات والأرض أنه ضمّني إلى صدره بقوة كدت أصرخ وكادت أضلعي تتحرك وتنتقل من مكانها. لكن ما أجمله وما أصدقه من حضن، من جندي أحاطني بالأمان التام الذي يفتقده ويتمناه كل فلسطيني على أرض الوطن.

ظن زملاؤه أنني أخوه وأحد من أسرته الذي لم يره منذ فترة. تقدم نحونا كل من كان على البوابة قريب، والجميع كانوا سعيدين بي كثيرًا.

سألت عن الضابط عثمان الحاج وأخبروه وقبل بلقائي ولم يكن استقباله لي أقل من استقبال الجميع. أخرجت الصورة من جيبي فرأها وسألني من أين لي بهذه الصورة، فقلت: "أمي أعطتها لي ليسهل عليّ إيجادكم، فأنا قد قدمت من فلسطين". ابتسم ابتسامة حزن وكان سيقول ما عنده إلا أنه تراجع. وأنا دون خجل ضغطت عليه بطريقة وأخرى لأعرف من هذه التي بالصورة، فالفضول عندي كاد أن ينهيني.

كان رده أنه سيخبرني لاحقًا. وما يليها اقترح أن أنتقل إلى منزله وأقيم دون حرج أو رفض واعتراض مني، وأنا سعدت باقتراحه هذا لأنني ليس لديّ مكان أذهب إليه وعاجز عن إيجاد مأوى مع أن الجميع هنا يقدمون لي المساعدة بكل أشكالها دون تأخر.

انصرفنا معًا من الثكنة العسكرية واتجهنا إلى المنزل الذي صرت أعرف طريقه واتجاهه. وبالمساء أخذني معه وسرت الطريق إلى أن وصلنا إلى المقبرة. وقفت مستغربًا وقلقًا في نفس الوقت، وبدأت أسأل نفسي مليون سؤال، لماذا نحن هنا؟ وفي الأخير سألته: "ماذا نفعل هنا أيها الضابط؟" فأجابني: "سوف تعرف".

حارس المقبرة يعرف الضابط عثمان جيدًا. دخلنا ومشينا قليلًا وفجأة توقف السيد عثمان عند مقبرة للسيدة هنية الحاج المتوفاة منذ عشرين سنة، هذا ما هو مدون على حجرة القبر. جلس السيد عثمان على حافة القبر وقال لي: "التي بالصورة أختي هنية التي توفيت بفرنسا منذ عشرين سنة."

بدأت أربط ما قاله بعلاقتنا بأخته، فقد تكون إحدى صديقات أمي المقربات عندما كنا بباريس. الضابط عثمان بدأ يحدثني عنها وهو حزين جدًا، وأنا حزنت أكثر عندما علمت أنها فارقت الحياة هي وزوجها إثر حادث مرور أليم وقد كانت السيدة هنية حامل في شهرها التاسع.

بقينا بالمقبرة ما يقارب الساعة وهو قد أخبرني تقريبًا بكل شيء عنها. ونحن في الطريق قال لي: "سنذهب عند والدتي فإنها ستفرح بك، فهي كانت تحب والدتك كثيرًا كما كانت أختي هنية تحبها."

وصلنا عند جدتي رقية، أين وجدتها تقريبًا فاقدة للذاكرة، فتتعرف على الأشخاص في الدقيقة الأولى وعند الدقيقة الثانية تنسى بسرعة أو العكس. أحببتها كثيرًا لدرجة أنني لم أرد مغادرة المكان الذي هي به، فبقيت وجاء البقية من العائلة، فالضابط عثمان له أختان وخمسة إخوة.

اجتمع الجميع يوم غد من أجل لقائي ورؤيتي. فهم عائلة متماسكة محبة متساوون فيما بينهم في التعامل والاحترام والتعاون والتضامن كتساوي أسنان المشط. كنت أفضل الجلوس بالقرب من جدتي رقية التي كانت

تروي لي الكثير من القصص عنهم وعن المتوفاة هنية وحتى عن والدتي التي كانت تلتقي بها في فرنسا عند زيارتها لابنتها، وحتى عني عندما كنت صغيرًا جدًا عندما انتقلت إلى فرنسا لأخذ ما تبقى من أغراض ابنتها المتوفاة وزارت والدتي التي كانت في أيامها الأولى من ولادتي.

أمي كانت على حق عندما رسمت طريقي إلى هنا، فحقًا عائلة ممتازة بكل ما فيها. يا للعجب على هذا الشعور والراحة والطمأنينة التي عمت كل الجسد والعقل والقلب والجوارح.

لم يسألني أحد كم ستبقى وماذا ستفعل وكيف ستعيش أو تغادر.

بالعكس كأنها عائلتي التي قبلت بي وتواجدت معهم منذ بداياتي وعشت ما عشت معهم وأنا الآن ضمنهم. إلا أن بقائي هكذا دون عمل أو انشغال كان يزعجني بشكل كبير، يقلقني ويحزنني وبالأخص أنهم يوفرون لي كل شيء دون طلب مني.

قبل أن أطلب من السيد عثمان أن يجد لي عملًا، حدثني واقترح علي أن أنضم إلى صفوف الجيش الجزائري، خاصة بعد تقدير الرسالة التي

أعطتها لي المقاومة الفلسطينية إلى أعلى القادة بالجيش. صدر قرار من طرفهم بضرورة التحاقي بصفوف التدريب بالجيش، وأنا تحمست وكنت أرغب بذلك منذ البداية.

انضممت إلى الجيش الجزائري وصرت واحدًا منهم، ولأنني متعلم وأتقن اللغات ساعدني هذا كثيرًا في أن أكون ضمن الهيئات المهمة في الجيش، وبمجرد انضمامي بستة أشهر تم إرسالي إلى روسيا ضمن منحة الجيش في المجال العسكري. سافرت ودرست وتدربت بروسيا مدة عامين وعدت إلى الجزائر، حيث تم تكريمي ومنحي الوسام الرئاسي من قبل رئيس دولة الجزائر.

طيلة هذه السنوات كنت على تواصل مستمر مع أحد الإخوة في المقاومة الذين كان ينقل لي أخبار أبي وأمي اللذان بخير، وكنت أتواصل معهم بين الحين والآخر وأكلمهم وأطمئن عليهم. وبقينا على هذا الحال طيلة هذه الفترة، وطلبت مني أمي أن أتزوج بابنة أخت السيد عثمان، وأنا بصراحة منذ رؤيتها وأنا معجب بها وأرغب في التقرب منها. طلب

أمي كان متوافق مع رغبتي لأنني كنت أخبرها بكل شيء عندما تتيح الفرصة.

ولأن السيد عثمان كان قريبًا مني جدًا تكلمت معه وعرضت عليه الموضوع، ولم يتفاجأ لأنه كان يلاحظ نظراتي ومتوقع طلبي هذا. هو تكلم مع أخته وتمت الخطوبة وسط جو عائلي حضرته أمي وأبي بالدعوات.

بعد الخطوبة بفترة قصيرة كان الزواج الذي شهد حضور عدد هائل من الناس الذين يعرفونني وكل من سمع أن الفلسطيني حفل زفافه اليوم كان موجودًا.

كانت الحياة مستقرة معي جدًا، ولم أتوقع يومًا أن حياتي ستكون هادئة ويعم فيها الاطمئنان والأمان بهذا القدر الكبير.

مر على زواجي سنة، وكنت قد رزقت بابني الأول تاليان الذي عند قدومه كنت أبكي بشدة، فقد أصبحت أبًا ورب أسرة لم أحلم بها صراحة ولم تمر على مخيلتي يومًا. عند بلوغ تاليان الأسبوع من عمره،

أقمت له وليمة الختان التي حضرها الأهل والجيران والأصدقاء. وصارت الأيام مختلفة عن باقي الأيام، فتاليان قد غيّر جو المنزل وحوّل الحال من حال إلى حال كله بهجة وسرور.

تحسرت لأن أبي وأمي لا يمكنهما رؤية تاليان، ولا يمكنني اصطحابه إليهم، وهذا من غير الممكن. حياتي تسير بالشكل الممتاز الذي لم أرسمه ولم أخططه يومًا، فتيسيرات الله دائمًا غالبة ومسيطرة ومرضية في النهاية.

مرت على غياب أمي وأبي ما يقارب شهر، فلم يعد بإمكاني الوصول إليهم ولا الاطمئنان عليهم. وصرت أنا داخل بركة من القلق والحيرة التي جرتني للتفكير في الذهاب إلى فلسطين بطريقة أو بأخرى للاطمئنان عليهم. إلا أنه من الصعب الذهاب بعد قدوم تاليان، فلا يمكنني تركه، لأنه عند عودتي إلى فلسطين قد لا أتمكن من العودة إلى الجزائر، وإن تمكنت فلا بد أن أفكر في احتمال عدم عودتي.

لا تعد حياتي يسودها الهدوء والراحة التي اعتدت عليها عند تواجدي بالجزائر. قلقي على أمي وأبي والحرب القائمة بفلسطين التي أشعلتها وأثارتها إسرائيل من جديد وبقوة، صرت كالمجنون الذي لا هو مرتاح بالبقاء ولن يكون مرتاح بالرحيل وترك من هم معه وتحت مسؤوليته وراءه.

وفي تلك الليلة التي غاب فيها النوم عني كسائر الليالي منذ فترة، هناك من اتصل بي من القيادة الفلسطينية وأخبرني بأنه سيسافر هو ووالده ووالدته إلى مصر هروبًا من الحرب، وعليك انتظارهم هناك والباقي لك ومن اختصاصك وتحت تصرفك، وانقطع الاتصال دون أي معلومات أو تفاصيل إضافية.

أيقظت زوجتي ضحى من النوم وأخبرتها بالمكالمة، وكان اتفاقنا في الأخير على السفر إلى مصر قبلهم والبقاء هناك إلى حين وصولهم، وبعدها الانتقال إلى الجزائر مباشرة.

أخبرتهم بمكان عملي على سفري، وكان الكل يحاول أن ينبهني ويجعلني أذهب إلى احتمالية أنها سوى مؤامرة وتخطيط لاغتيالي والقضاء عليّ من قبل إسرائيل، بعد أن سمعت وعرفت بأنني بالجزائر وضمن الجيش الجزائري، خاصة بعد تداول حفل تكريمي ومنحي الوسام الرئاسي الذي عرضته مختلف الوسائل الإعلامية مع ذكر أنني كنت بالجيش الإسرائيلي.

لم أستطع الذهاب إلى احتمال أنها قد تكون مؤامرة، وركزت فقط في أنني لا بد أن أسافر وليس وحدي، وإنما زوجتي وابني معي ونكون جميعًا في استقبال أمي وأبي بعد غياب سنوات.

بقيت أنتظر ذلك الاتصال الذي من خلاله أعرف موعد اللقاء مع أبي وأمي. كل الأمور على ما يرام، وسفري أنا وابني وزوجتي بقي عليه أيام قليلة فقط.

قبل سفري بيوم، اتصل بي الشخص الذي لا أعرفه حتى الآن وأخبرني أن وصول أبي وأمي سيكون بعد أسبوع، وأنا أخبرته أن سفري إلى مصر غدًا وأنني سأكون بانتظارهم.

سافرنا وكانت رحلة مريحة وموفقة جدًا. وصلنا مصر وقضينا أوقات جميلة بأم الدنيا، إلى أن جاءني اتصال بأن أستقبل أمي وأبي في سيناء، في العريش.

تنقلت أنا وزوجتي وابني تاليان إلى هناك وكنت سعيدًا جدًا. وصلنا وبقينا لساعات طويلة ننتظر في المكان الذي تم ذكره وتحديده لي، وفي الساعة الأخيرة من الانتظار، هناك من أطلق النار على زوجتي رقية التي من سوء حظها تلقت الطلقة بالنيابة عني، وأنا بسرعة اختبأت أنا وتاليان لكي لا يصيب هذا الطفل الصغير أي مكروه.

من أطلق النار فر بسرعة البرق، وبالمقابل لا وجود لا لأبي ولا لأمي، سوى جثة حبيبتي رقية ملقاة على الأرض.

فمن كان يقول لي إنها سوى مؤامرة سأخسر فيها لا أكثر ولا أقل، وأنا لم أسمع واستبعدت ذلك، فاشتياقي لهما جعلني أجري كالملهوف الذي لا يقوى على الانتظار والصبر أكثر.

وقعت أرضًا عندها أترجى ضحى بأن لا ترحل بهذه السرعة وأنها تصمد من أجلنا. ردت وقالت: "يا سادن، أنت جزائري يا زوجي الغالي، جزائري من الجزائر"، وفارقت الحياة.

من شدة الصدمة لم أعرف هل أسارع إلى الحزن عليها أم أنشغل بما قالته لي.

جاء الذي ساعدني على حملها ونقلها إلى المستشفى ومن هناك تم نقلها إلى الجزائر وعدنا. كنت صامدًا ولا أدري من أين لي بهذا الصبر، فهو لا غيره تاليان مصدر هذه القوة وهذا الصبر. دفنتها بالجزائر وبقيت أزور قبرها باستمرار فإنني عاجز عن تخطي موتها وتقبل رحيلها وقبول غيابها الذي أنا بسببه احترق وأحترق وأحترق.

جلس الأهل معي وأم ضحى، خالتي سعاد والجميع. سألتهم عن الذي أخبرتني به ضحى ولماذا قالت لي أنك جزائري على أمل أن أجد الجواب، لأنني لم أتوقع الذي قالته ولم أصدقه إلى حد كبير.

تكلمت جدتي وقالت: "أنت حفيدي يا سادن، أنت ابن هنية ابنتي." ضحكت ضحكة الحزين الذي لا يقوى على المفاجآت ولا هي وقتها.

تكلمت بعدها خالتي سعاد وأكدت ما قالته جدتي. نظرت إلى السيد عثمان وهو كذلك أكد أنني منهم وابن أخته.

كيف ولماذا لم تخبروني طيلة هذه السنوات؟ فلا أحد كان يعرف إلا قبل سفرنا بساعات قليلة. وضحى نبهت الجميع أن لا يخبرني أحدًا ويزعزع استعدادي للسفر، وقالت عند عودتنا جميعًا نحتفل ونخبره.

وأنا جالس لا أتحرك ولا أصدر أي صوت من هلع المفاجأة التي جلست على أثرها حائرًا، هل أفرح أم أبقى كما أنا، والحال هو نفس الحال.

أحضر السيد عثمان رجلًا قائلًا: "هذا هو من أخبرنا بالذي لم تستطع تصديقه إلى الآن."

جلس هذا الرجل الغريب بجواري، ولمس كتفي ومسح على رأسي وقال: "لقد كبرت بسرعة وأصبحت شخصًا جيدًا كما توقعت وقتها عند رؤيتك للمرة الأولى."

أنا أعرف والدتك التي أنجبتك ووالدتك التي ربتك وأخذتك معها. أنا الطبيب خالد، كنت أعمل بمستشفى بفرنسا، ووالدتك الجزائرية زوجة صديقي أيمن الذي توفي معها إثر حادث مرور. وعند نقلهم للمستشفى كنت أنا في استقبالهم وأنا من أشرفت على ولادتك. ووالدتك قبل وفاتها طلبت مني أن أسلمك لصديقتها وجارتها الفلسطينية التي لا تنجب.

والدتك الفلسطينية كانت هناك لحظة نطق والدتك الحقيقية هذه الوصية. وبالفعل غادرت أنت خلال يومين معها ومن وقتها لم أسمع عنكم أي شيء.

طيلة هذه السنوات أنا كنت بفرنسا، وعند عودتي للجزائر التقيت بخالك عثمان ولم أرد أن أخبره بالموضوع لأنني نسيته ولأن والدتك هنية طلبت بأن لا أخبر أحدًا وأنا التزمت.

عندما أخبرني السيد عثمان عنك، مباشرة ذهب تفكيري إليك وأخبرته بالأحداث كما حدثت دون زيادة أو نقصان. فأنت سادن، ووالدتك هنية هي من سمتك سادن، إلا أنك حملت اسم أبيك الفلسطيني لأنه تم تسجيلك عليه. أنت جزائري فلسطيني عايشت الكثير وكنت هناك وأنت الآن هنا بين أهلك وناسك، فما أقوى القدر عندما يدون قراره فينفذ في الوقت والمكان المناسب الذي لم نتوقعه.

لم أنهض من الصدمة وقتها وبقيت مصدومًا مكتوف الأيدي مربوط اللسان والحركة، حتى بدأت أستوعب شيئًا فشيئًا كل شيء. أريد أن أسمع من أمي التي أرسلتني إلى هنا قصدًا وعمدًا، ومع أن الموضوع واضح إلا أنني بحاجة إلى سماعها وسماع كل هذا منها.

سمع الجميع بأنني الجزائري الفلسطيني، والكل مستغرب لقدرة الله على ربط الأحداث ببعضها لتكون النهاية عودة الابن لأهله ووطنه وأناسه.

ذهبت عند أهل أبي الذي لم أجد فيهم أحدًا سوى ابن عمتي الذي لا يعلم بشيء. ليس عليّ أن أبقى هنا فلا بد أن أعود إلى فلسطين لأجد أمي وأبي وأنتقم لقتل زوجتي.

أخبرت الجميع بقرار عودتي إلى فلسطين إلا أن الجميع رفض. فأنا أنوي الرحيل ولكنني لن أترك تاليان لوحده فسيرافقني ويكون معي.

حتى في عملي، الضباط رفضوا ذهابي إلى فلسطين لعدة اعتبارات منها أنه لا نفع من الذهاب والحرب مشتدة هناك. لم أسمع لكلام أحد وبقيت على إصراري وقراري واتجهت إلى المطار أنا وتاليان للتوجه إلى القاهرة ومنها إلى فلسطين، إلا أنه تم منعي من السفر بعد وضعي اسمي من الممنوعين من السفر. فعرفت أن الجيش منعني من الخروج خارج الجزائر لأتراجع عن قراري المتهور.

عدت أدراجي إلى الوراء لأجهز طريقي البري للمغادرة. وفي تلك الليلة المظلمة، حملت تاليان الذي كان نائمًا واتجهنا نحو الحدود بين الجزائر وليبيا، أين غادرنا الجزائر ذهابًا إلى ليبيا. فقد اتبعت نفس الطريق والمسلك الذي اعتمدت عليه عند دخولي للجزائر.

خططت ورتبت لهذا الرحيل لمدة شهور لكي أتمكن من السفر بكل هدوء مادام تاليان معي. وكان من الصعب أن أجد أناسًا يساعدونني في السفر برًا، ولكنني غادرت الجزائر أنا وتاليان على متن شاحنة ناقلة للبضائع. اختبأنا بها ووصلنا ليبيا.

بقينا بضعة أيام في الفندق بانتظار الحافلة التي تنقلنا إلى مصر، ووصلنا مصر الحبيبة أين اتجهت إلى قبيلة الأخارسة بسيناء. أقمت تقريبا لمدة شهرين إلى أن فتح معبر رفح ليوم واحد، في هذا اليوم كنت على متن الحافلة الذاهبة إلى غزة.

كان العدو الإسرائيلي متواجدًا ضمن مداخل ومخارج غزة، والوضع سيء جدًا هناك. نزل الركاب جميعهم وبدأنا نسير طريقًا طويلًا جدًا، وأنا

أحمل تاليان على كتفي ككل مرة وخلال الرحلة. نعم هو يمشي إلا أنه لا يزال صغيرًا، وأنا أحب حمله ووضعه فوق كتفي كالمعتاد.

بدأ الجنود الإسرائيليون ينظمون صفوفنا، ومن البعيد القريب هناك حفرة كبيرة جدًا جدًا، بدأوا بإلزامنا بوضع الأولاد داخل الحفرة، فاجتمع جميع الأولاد لدرجة أنني لم أعد أرى ابني تاليان صاحب السنتين ونصف. وقفنا جميعًا نحن الأمهات والآباء ننتظر الأمر التالي، كأن يأمرونا بسحب أولادنا وإخراجهم من الحفرة، إلا أن الأمر كان أشبه بالخيال والمستحيل تطبيقه، وهو أن كل واحد وواحدة منا يقوم بإخراج طفل بسرعة ولا يكون ابنه، أي طفل بالحفرة، ويسير باتجاه والشخص التالي نفس الأمر ويسير بالاتجاه المعاكس.

هذا هو العدو الإسرائيلي لا يتوقف عن إيلامنا وإهدائنا الألم فوق الألم فوق الآلام.

أنا وقفت موجوعًا لما يحدث على أمل أن تكون المعجزة، وفي هذا اليوم كانت الأمطار غزيرة جدًا والجو مغيم من ظلم ما يحدث لهؤلاء الأبرياء

من الكبار والنساء والأطفال. أنا لم أعد أرى تاليان أين هو، ولكي لا ينكشف أمري ويعرفونني كنت ملزمًا بأن أنفذ هذا الأمر الإجرامي وأخرج أي طفل من الحفرة بسرعة البرق، وهذا ما فعلته وسرت وأنا أنوي بعدها البحث عن تاليان بطريقتي الخاصة.

أخرجت طفلًا من الحفرة التي بقي عليها دقائق لتمتلئ بالماء، وما علينا سوى إنقاذ الأطفال من الغرق دون التركيز والتدقيق، من هو وهل هو ابني أم لا. الطفل الذي أخرجته لم أدقق إن كان ذكرًا أم أنثى، أخرجته وذهبت بالاتجاه الذي حدد لي وأنا حريص على أنه لا يتم كشف أمري. مع أن ملامحي ليست هي ملامحي ولا هيئتي هي الهيئة التي كنت عليها، فالحزن غير ملامحي والذقن الطويل أخفى بعض ملامحي.

وأنا أحمل ذلك الطفل وأحاول تغطيته من البرد وشدة المطر، مسكني بقوة وقال: "أبي، أبي." هذا صوت تاليان، نعم صوته. سرت دون التفات أو توقف إلى أن غبت عن الأنظار، ونظرت إلى الطفل وإذا

هو تاليان يرتدي قبعة كبيرة قد أخفت ملامحه. من أعطاه هذه القبعة؟ فهي ليست قبعته. حتمًا أحد الأولاد وضعها على رأسه أو هو وجدها فلبسها.

رغم الحراسة المشددة، غادرت ذلك المكان رغم بقاء الكثير، وتمكنت من سلك الاتجاه المعاكس في وقت قصير دون أن ينتبه إلي أحد من الجنود. وصلت إلى المقاومة، حيث تم استقبالي أنا وتاليان، ومن الآن أصبح مكانهم مكاننا وفلسطين موطننا.

لم أجد أمي وأبي فقد استشهدا والعدو أعدمهما، ومن هناك أكدوا لي أنني جزائري، وأمي روت القصة كما سمعتها وأنا بالجزائر. بدأت رحلة جهادي من جديد مع المقاومة. ارتديت اللباس العسكري الجزائري، لباسي الخاص الذي بدأت به وبقيت أناضل وأجاهد وأحارب العدو. لم أعد أرتدي ذلك القميص الذي عليه العلم الجزائري. فأنا المحارب الجزائري بالزي العسكري الرسمي، الجزائري الذي يهوى الاستشهاد على أرض فلسطين، والجزائري الذي يهابه العدو.

لم أعد بالجزائر، وأنا ابنها الذي غاب عنها طويلًا وعاد إليها بعد طول غياب ومعاناة. اليوم، الجزائر تسكن القلب والعقل والروح. هي حاضرة عن طريقي ومن خلالي. قد لا أرى الجزائر ثانية، ولن يراني أهلها، ففلسطين تستحق التضحية والموت على أرضها الطاهرة.

النهاية.